



<https://ui.ac.ir/en>

Journal of Research in Arabic Language

E-ISSN: 2322-4649

Document Type: Research Paper

Vol. 14, Issue 2, No.25, Autumn & Winter, 2021-2022

Received: 05/07/2020 Accepted: 22/09/2020

Teaching Arabic Literature in France: Problems and Approaches

Miloud Gharrafi

Professor of Arabic Language and Literature, University of Lion, France

miloud.gharrafi@univ-lyon3.fr

Abstract

Over the past two decades, the teaching of Arabic in Europe, and France in particular, has made significant progress for several reasons, notably geopolitical ones. Indeed, since the terrorism of Al-Qaeda and Daesh has begun to strike within Europe and the United States, and since the American invasion in Iraq aiming at fighting terrorism, several institutions have set up teaching the Arabic language. While individuals' and state institutions' interest in the Arabic language has been beneficial, it has in the meantime been detrimental, because it directly associates the Arabic language with Islam and does not consider it as a regular language among many others. In France, although the beginning of the teaching of Arabic is historically linked to colonial times, it was gradually dissociated from this bias and settled as a purely academic teaching in universities. The present study proposes a historical reading of this teaching and discusses its current state in French universities. It focuses on the teaching of Arabic literature from its syllabi in relation to the cultural and political situations that Europe, in general, and France, in particular, are experiencing.

Keywords: Arabic, Colonialism, Education, Literature, Method, Orientalism.

References

- Gharrafi, M. (2012). *Teaching Arabic in France between Institutional Selection and Referring to Identity, in Languages and Migration*. Rabat: publication of Council of Moroccan Community abroad.
- Laurens, H. (2008). *Orientalism in France, Perspective, and the Centenary of Arabic Aggregation*. Versailles: Acts of DGSCO, CRD.
- Reig, D. (2006). *Scientific Orientalism: from Humanism to Politics, in History of Islam and Muslims in France from the Middle Ages to the Present Day*. Paris: Albin Michel.

تدريس الأدب العربي بالجامعة الفرنسية الإشكاليات والمنهج^١

ميلود غرافي * *

الملخص

لقد شاهد تدريس العربية في العالم، وفي أوروبا وفرنسا خاصة، تزايداً ملحوظاً منذ العقدين الأخيرين؛ وذلك لأسباب متعددة، تأتي على رأسها الأوضاع الجيوسياسية. فمنذ أن بدأ الإرهاب القاعدي والداعشي يضرب في عقر دار أوروبا وأمريكا، ومنذ أن بدأ التدخل الأمريكي في العراق تحت مبرر محاربة هذا الإرهاب، تزايد إقبال المؤسسات والأفراد على تعلم العربية. وإذا كان هذا الإقبال لصالح اللغة، فإنه من جانب آخر، يسيء إليها؛ لأنه يربطها دائماً وسلبياً بالدين، مما ينعكس سلباً على هذا التعليم ويجعله مشروطاً برؤية إيديولوجية لا تنظر إلى اللغة العربية، كما ينظر إلى باقي لغات العالم. لكن تعليم العربية في الجامعات الفرنسية، حتى وإن كانت بداياته التاريخية مشروطة بأطماع استعمارية، فإنه استطاع أن يتأسس تدريجياً على أسس أكاديمية. يقترح المقال قراءة وصفية لتاريخ تدريس الأدب العربي في الجامعات الفرنسية، ويتوقف عند مقررات تدريس هذا الأدب وإستراتيجيته ومناهجه والإشكاليات التي يثيرها في علاقته بالتطورات الثقافية والسياسية التي يشهدها الغرب بشكل عام، والمجتمع الفرنسي بشكل خاص.

الكلمات المفتاحية: الأدب، الاستشراق، الاستعمار، التدريس، العربية، المنهج

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

١- تاريخ التسلم: ١٣٩٩/٤/١٥هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٩/٧/١هـ.ش.

Email: miloud.gharraf@univ-lyon3.fr

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ليون، فرنسا

Copyright©2022, University of Isfahan. This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution License (<http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits others to download this work and share it with others as long as they credit it, but they cannot change it in any way or use it commercially

HTTP://10.22108/RALL.2020.123770.1300

١. المقدمة

ارتبط اهتمام النخبة والعلماء والأطر السياسية بالأدب العربي في فرنسا بما سيطلق عليه لاحقاً بمفهوم الاستشراق الذي لم توافق الأكاديمية الفرنسية على استعماله إلا سنة ١٨٨٣ للميلاد. لكن المستعرب الفرنسي، دانيال ريغ^١، صاحب قاموس السبيل: عربي / فرنسي، يقول بهذا الصدد: «لم يتم انتظار إنشاء مفهوم الاستشراق، لكي تدرس اللغات الشرقية» (٢٠٦م، ص ٦٠١)؛ فمنذ سنة ١٧٠٤، ظهرت الطبعة الأولى لترجمة كتاب *ألف ليلة وليلة* على يد أنطوان غالون^٢، وفي سنة ١٧٨٣م، نشرت ترجمة القرآن إلى الفرنسية على يد كلود سافاري^٣.

غير أن هذا الاهتمام بكتب الأدب والدين سبقه منذ القرن السادس عشر تدريس اللغة العربية. ففي سنة ١٥٣٠م، قام الملك فرانسوا الأول بإنشاء الكلية الملكية المعروفة حالياً بكوليج دو فرانس، أي كلية فرنسا، وأنشأ بها كرسي اللغة العربية؛ لكن ظل تعليم اللغة العربية واللغات الشرقية عامة إلى حدود القرن الثامن عشر محصوراً في ميادين المعارف التطبيقية والنفعية، وحتى بعد أن أنشأ كولبير^٤، أحد وزراء الملك الويس الرابع عشر، مدرسة شباب اللغات بباريس سنة ١٦٦٩م، والتي انضمت لاحقاً إلى مدرسة اللغات الشرقية وتشكل معها ما يطلق عليه اليوم بمعهد اللغات الشرقية، ظل تدريس اللغة العربية مرتبطاً بتكوين أطر في الترجمة من أجل أغراض ديبلوماسية وتجارية. وكان تدريس اللغات الشرقية إلى هذه المرحلة حسب المستعرب، دانيال ريغ، «منصبا على اللغات أكثر منه على الحضارات» (المصدر نفسه، ص ٦٠٢)؛ وكان الغرض هو «التواصل مع شعوب الشرق وممثليها أكثر منه اهتماماً بثقافتها» (المصدر نفسه).

لكن منذ بداية القرن الثامن عشر، بدأ تطوير تعليم اللغات الشرقية من خلال ما أصبح يسمى آنذاك بمدرسة اللغات الشرقية أو معهد اللغات الشرقية حالياً. يعتبر المستشرق، سيلفستر دو ساسي^٥، أحد أبرز رؤساء هذه المدرسة نظراً لدوره في تطوير تدريس اللغة العربية بها. فبعد أن كان طالبا نابغا في دراسة اللاتينية والإغريقية، تعلم لغات أوروبية أخرى، مثل: الإيطالية، والإسبانية، والإنجليزية والألمانية، ثم عكف بعدها على دراسة السيربانية، والكلدانية والعبرية، ثم العربية التي درسها لاحقاً في مدرسة اللغات الشرقية والفارسية.

وإليه، يرجع الفضل في التعريف باللغة العربية في أوروبا، حيث كان يقصده للدراسة على يديه طلاب من بلدان أوروبية أخرى، خاصة من ألمانيا. وأصدر سيلفستر دو ساسي كتاب النحو العربي سنة ١٨١٠م، الذي ألفه خصيصاً لطلاب مدرسة اللغات الشرقية. وفي مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب الصادرة سنة ١٨٣٠م، يكتب المؤلف: «خلال العشرين سنة التي مرت على الطبعة الأولى من هذا الكتاب، تطورت دراسة اللغة العربية في فرنسا وألمانيا وفي كل دول أوروبا الشمالية بشكل لم يكن متوقعا. لقد تم تأليف كتب عديدة صار معها التعرف على الآداب القديمة والجديدة عند العرب أمراً يسيراً» (المصدر نفسه، ص ٦١٢).

وإبتداء من القرن التاسع عشر، تم الاهتمام بتدريس اللغة العربية في ارتباط وطيد بالمطامع الاستعمارية التي كانت لدى فرنسا في شمال إفريقيا خاصة، فتم تكوين نخبة من الطلاب المختصين في دراسة شعوب تلك المستعمرات وأنساقها الثقافية

1. Daniel Reig
2. Antoine Galland
3. Claude Savary
4. Colbert
5. Silvestre de Sacy

وتكوين أطر عسكرية ومدنية في إطار ما أطلق عليه آنذاك بـ"المكاتب العربية" من أجل أن تكون خبيرة في لهجات شمال إفريقيا وفي اللغة العربية الفصحى. حسب المؤرخ الفرنسي، هنري لورانس^١ المختص في شؤون العالم العربي بكلية كوليغ دو فرانس: «مع مرور الوقت أصبح الكثير من هؤلاء الأطر الإدارية الكولونيلية علماء» (٢٠٠٨م، ص ٢٥)، ويذكر من بين هؤلاء المستشرقين والأستاذين الجامعيين، شارل بلا^٢، وجاك بارك^٣.

وقد شكلت مباراة التبريز في اللغة العربية التي تم إنشاؤها سنة ١٩٠٦م، إحدى مظاهر هذه الإستراتيجية الكولونيلية في تدريس اللغة العربية. وبعد المرحلة الاستعمارية، ظهرت أغراض أخرى لاهتمام فرنسا بتدريس اللغة العربية، ومنها حاجة البلد إلى الأيدي العاملة في المصانع والمزارع. ففي سنوات السبعينيات من القرن الماضي، تم ترخيص العمال المهاجرين في فرنسا باستقدام عائلاتهم، فتم توسيع تدريس اللغة العربية في المدارس الإعدادية الثانوية، سواء في إطار التعليم الفرنسي أو في إطار ما يسمى بتدريس اللغات والثقافات الأصلية، من أجل إعداد أبناء المهاجرين للعودة يوما إلى بلدانهم الأصلية وتسهيل انخراطهم بمدارسها.

فبالنسبة إلى تعليم اللغة العربية في المدارس الإعدادية والثانوية الذي تشرف عليه وزارة التربية الوطنية في إطار تدريس اللغات الأجنبية في المدارس العمومية، فإن عدد المقبلين عليه يفوق ٨٠٠٠ تلميذا حسب إحصائيات ٢٠١١م، يتوزعون على ٢١٥ مؤسسة تعليمية من الإعدادي حتى البكالوريا (كلكتيف، ٢٠١١م، ص ١٢١)، وبعض المدارس المهنية ما بعد البكالوريا. ويحتل تدريس اللغة العربية من حيث عدد المقبلين عليه في الإعدادي والثانوي الرتبة الثالثة في تدريس اللغات الأجنبية بفرنسا بعد اللغتين الإسبانية والإيطالية، وتأتي بعد العربية، اللغات الألمانية، والصينية، واليابانية، والروسية والبرتغالية.

وأما تعليم اللغة العربية في إطار ما يصطلح عليه باللغات والثقافات الأصلية، فإنه يشمل بعض مؤسسات التعليم الابتدائي التي يوجد بها الكثير من التلاميذ المنحدرين من بلدان شمال إفريقيا. وهو تعليم يندرج ضمن اتفاقية بين وزارة الخارجية الفرنسية وبعض بلدان شمال إفريقيا، كالمغرب، والجزائر وتونس، يقوم بمهمة التدريس فيها مدرسون تبعثهم هذه البلدان خصيصا من أجل هذا الغرض، وفي حرص منها على أن يكون هذا التعليم ملائما لقواعد التربية والتلقين للفرنسية، فإن وزارة التعليم الفرنسية تقوم عبر مفتشيها بمراقبة هذا التدريس؛ لكن لا تتدخل في برامجه.

أما تدريس اللغة العربية في التعليم العالي، وهو ما سنتعرض له في هذه الدراسة، فإنه أقدم تاريخيا - كما أسلفنا - من التعليم الابتدائي والثانوي، ويشمل العديد من الجامعات والمدارس العليا. وتعتبر الجامعات الباريسية كالسوربون، وباريس الثامنة، ومعهد الدراسات الشرقية، وجامعات ليون، وإيكس - مرسيليا، وبوردو، وتولوز، وريين، ولوران - نانسي، وليل وستراسبورغ من أكبر المؤسسات التعليمية العليا في فرنسا التي تدرس فيها اللغة العربية، جنبا إلى جنب مع باقي اللغات الأجنبية المعروفة نحو: الإيطالية، والألمانية، والإسبانية، والبرتغالية، واليابانية، والصينية، والفارسية، والعبرية و...، كما توجد هناك أقسام صغرى في جامعات، مثل: مونبوليه، ونانت، وغرونوبل، ونانتار، وكلامون فيران، وأفينيون، ولوهافر، وباريس الأولى وتور يتم تدريس العربية فيها كلغة فقط ضمن أقسام اللغات التطبيقية الأجنبية.

1. Henry Laurens
2. Charles Pellat
3. Jacques Berque

وتجدر الإشارة إلى أن مؤسسات أخرى في التعليم العالي تابعة لوزارة أخرى، مثل الدفاع وغيرها، تتوفر على أقسام اللغة العربية، كما هو الشأن بالنسبة إلى المدرسة العليا سان سير ومدرسة بوليتيكنيك. وإذا كان هذا التقليد في تدريس اللغة العربية فرنسا تقليدا مرتبطا في مراحلها التاريخية بأغراض دينية فاستعمارية ثم مهجرية، فإنه بدأ منذ العقود الأخيرة يأخذ منحى أكاديميا صرفا، حيث أصبحت أقسام اللغة العربية تحتل مكانتها جنبا إلى جنب مع باقي اللغات الأجنبية، وإذا كانت دواعي الإقبال عليها تختلف من طالب إلى آخر، فإنها تستجيب عموما لرغبة قوية لدى الغالبية العظمى من الطلاب في التعرف إلى الحضارة العربية والإسلامية واكتشاف الحقول المعرفية التي تشغل من داخل اللغة العربية قديما وحديثا.

يقول مفتش اللغة العربية العام بفرنسا ورئيس المجلس الإداري لمعهد العالم العربي بباريس سابقا، برونو لوفالوا، في هذا الصدد: إن هذه الرغبة موجودة بشكل قوي لدى «التلاميذ والطلاب من مختلف أصولهم الذين يريدون الحصول على معارف في تخصصات مرتبطة بالعالم العربي بدءا من علوم الحفريات، والتاريخ القديم، وأدب العصور الوسطى، والإسلاميات حتى مختلف المهن التي تدرج ضمن صناعات اللغة، كالترجمة التجارية والأدبية خاصة، والنشر، ومهن التنشيط الاجتماعي والثقافي، والصحافة، والصناعة، والتجارة، والتعليم والمجال الدبلوماسي» (كلكتيف، ٢٠١١م، ص ١٢٠).

٢. تدريس الأدب العربي في فرنسا

يدرس الأدب العربي بالجامعة الفرنسية حاليا في كل الأقسام التي يندرج تصنيفها ضمن ما يسمى بأقسام اللغات والآداب والحضارات الأجنبية. وهي أقسام مستقلة، توجد في كبريات الجامعات الفرنسية، مثل: السوربون، ومعهد الدراسات الشرقية بباريس، وجامعات ليل، وارين، وتولوز، وإيكس مارسيليا، وليون الثانية والثالثة، وبوردو وستراسبورغ، حيث يتم تكوين الطلاب من السنة الأولى إلى السنة الرابعة، أي الماستير، تكوينا عاما يشمل علوم اللغة واللسانيات والأدب والحضارة قبل أن يتخصص الطالب ابتداء من بحثه في السنة الثانية ماستير في واحدة من هذه الفروع تؤهله بدورها لإعداد رسالة الدكتوراه. ينطبق هذا النظام التعليمي على كل أقسام اللغات التي تدرج ضمن هذا التصنيف، حيث يكون معدل حصص التدريس وشروط الامتحانات في فروع الحضارة، وعلوم اللغة والآداب، هو نفسه بالنسبة إلى كل أقسام اللغات؛ في حين يقوم كل قسم بوضع مقرراته الدراسية ومحتوياتها وفق ما تقتضيه الشروط العامة في تقييم المستويات، وهي شروط تخضع لها جميع الأقسام وتتحكم فيها معايير وطنية وأوروبية.

يختلف تدريس الأدب العربي في الجامعات الفرنسية عنه في الجامعات العربية أو في الجامعات التي تشكل اللغة العربية في بلدانها لغة أساسية؛ ذلك أن اللغة العربية في فرنسا لا تدرس في كل المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية، مما يجعل بعض الجامعات الفرنسية تستقبل فوجين من الطلبة: فوج مبتدئ يتعلم العربية لأول مرة؛ وفوج سبق له أن درس العربية، إما في بلدان عربية أو في مؤسسات تعليمية فرنسية خاصة أو عمومية. ويتم في الغالب، تكوين الطلبة المبتدئين مدة سنتين أو ثلاث سنوات للحصول على شهادة تسمح لهم بولوج السلك الأول، أي الليسانس والالتحاق بفوج الطلبة المتمرسين.

يؤدي هذا الوضع إلى برمجة مقررات في تدريس الأدب تراعي اختلاف المستوى بين الفوجين. ولتسهيل عملية تدريس الأدب العربي، يتم في أغلب الجامعات الاشتغال على الأدب العربي الحديث والمعاصر في السنة الأولى والثانية من الليسانس بموازية مع تدريس تاريخ الأدب العربي بالفرنسية في شكل دروس استكشافية لأهم شعراء الجاهلية والإسلام على أن يتم تعميق هذا الدرس في السنة الثالثة من الليسانس من خلال الاشتغال على النصوص العربية القديمة شعرا ونثرا.

يختلف تدريس الأدب العربي في الجامعات الفرنسية عنه في البلدان العربية أيضا من حيث الأهداف، بحيث تتوخى أقسام العربية في الجامعات الفرنسية تكوين جيل من المستعربين يتقن العربية والفرنسية معا؛ لذلك يتم استقبال الطلبة العرب وغير العرب ويشترط في نجاحهم وإحرازهم على شهادة الليسانس أو الماستير أن ينموا قدراتهم التعبيرية واللغوية في الفرنسية لضمان اشتغالهم مستقبلا على الثقافة العربية داخل البلدان الفرنكفونية والبحث فيها باللغة الفرنسية، كما يشترط في الأفواج الفرنكفونية للحصول على نفس الشهادات إتقانها للغة العربية؛ لذلك يكون تدريس الأدب العربي باللغتين الفرنسية والعربية، ولذلك أيضا تكون المواد الموازية لدروس الأدب العربي، مثل الترجمة ودروس الحضارة العربية والإسلامية في انسجام تام مع هذا الغرض ويتم تدريسها أيضا باللغتين.

أما الخاصية الثالثة لتدريس الأدب العربي في الجامعات الفرنسية، فتتمثل في الطرق والمناهج المعتمدة، بحيث إن الهدف أيضا هو تمكين الطالب من الإحاطة الشاملة بمختلف فروع العربية وعلومها، ولو بشكل عام ومن أجل فهم القضايا الكبرى في تاريخ الأدب العربي؛ إذ لا يمكن تدريس مفهوم الأدب بمعناه القديم، أي كمجال شامل للعلوم والأخلاق والقيم وكمرادف للتعليم والتثقيف بدون الإحاطة بتاريخ العرب قبل ظهور الإسلام وبعده. فلا يمكن مثلا تدريس كتب الجاحظ وابن المقفع دون تدريس التاريخ السياسي للدولتين الأموية والعباسية، واختلاط العرب بشعوب أخرى كالفرس وغيرهم.

لذلك يشترط في دارس الأدب العربي في الجامعات الفرنسية أن يكون أيضا أديبا بمعناه القديم وعلى قدر كاف من الدراية بأهم القضايا الكبرى في تاريخ الأدب واللغة والفقه والفلسفة، كما يشترط فيه أيضا إلمامه بالمناهج الغربية الحديثة في دراسة المواد الأدبية من شعر ونثر، دون تغليب منهج على آخر؛ لأن الطرق المعتمدة في دراسة النصوص الأدبية تستفيد من هذه المناهج كلها بطريقة تكاملية تهدف أساسا إلى فهم السياق التاريخي والسياسي والأدبي لكل نص وحياته صاحبه وتكوينه الثقافي وعلاقته بأبناء جيله من الأدباء وتأثره بسابقيه، أي ضرورة إلمام الطالب بكل ما يساعده في فهم ظاهرة أدبية أو نص أدبي قديم أو حديث فهما شاملا ودقيقا.

ولعل هذه الطريقة في تدريس الأدب العربي التي تأخذ في الاعتبار كل المكونات الأساسية في نشوء الظواهر الأدبية، والتي لا يغيب أي عنصر من العناصر الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتاريخية، واللغوية والفنية في تشكلها تعود إلى تقليد فرنسي قديم في الجامعات الفرنسية. فأغلب القائمين على وضع مقررات التدريس الثانوي ومقررات المباريات لولوج سلك التعليم هم أساتذة مبرزون، أي حاصلون على شهادة التبريز التي تشكل إلى جانب شهادة الكفاءة في التدريس محطة ضرورية من أجل ولوج سلك التعليم الإعدادي والثانوي وأحيانا الجامعي. يعود إنشاء مباريات التبريز إلى القرن الثامن عشر وبالضبط إلى سنة ١٧٦٦م (تبريز العربية بدءا من سنة ١٩٠٦م)، ومازال مستمرا إلى يومنا هذا كأعلى شهادة للتدريس في السلك الثانوي.

ما يميزها عن باقي المباريات هو اشتراطها أن يكون الحاصل عليها ملما بشكل دقيق ومنهجي بأهم القضايا التي تخص مجاله وذا ثقافة واسعة؛ لذلك فإن أسماء كثيرة من تلك التي ميزت تاريخ الثقافة والفلسفة والعلوم بجميع فروعها في فرنسا هي

أسماء حاصلة على شهادة التبريز، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: جون بول سارتر، وسيمون دو بوفوار، وميشال فوكو، وجاك ديريدا، وجيل دولوز، وإميل بنفنيست، وجون جوريس، وكلود ليفي ستراوس، وجاستون باشلار، وجاك لونغ، الرئيس الحالي لمعهد العالم العربي بباريس، ومستعربون، كريجيس بلاشير، وجيرار لوكونت، وشارل بيلا، ومحمد أركون، وجمال الدين بن الشيخ، وأندريه ميكال وغيرهم.

وما زالت الهيئات الرسمية واللجان الساهرة على تنظيم مباريات التبريز في اللغة العربية وآدابها مكونة في أغلبها من مستعربين جامعيين مبرزين نشؤوا أنفسهم في هذا التقليد الفرنسي وحريصين على نفس طرق ومناهج أسلافهم في تدريس العربية وآدابها وحضارتها.

٣. إشكاليات الدرس الأدبي

لا يوجد في الجامعات الفرنسية برنامج موحد لتدريس مواد اللغة العربية وآدابها، ما عدا أن الدرس الأدبي يجمع بين الأدب القديم، أي الجاهلي والإسلامي بكل مراحلها، والأدب الحديث والمعاصر. لكن المتتبع لمحتويات الدرس الأدبي بمختلف الجامعات يلاحظ أنها تركز على إشكاليات بعينها تصب كلها تقريبا في إبراز الخصائص الجوهرية التي يتميز بها الأدب العربي القديم والمعاصر، منها: إشكالية مفهوم الأدب قديما، والمؤثرات الأجنبية كالفارسية والهندية التي ساهمت في نشوء النثر الأدبي عند العرب، مما يؤدي في هذا التدريس إلى وقفة ضرورية عند أجناس النثر العربي كالرسالة والحكاية والمقامة، ودراسة نصوص ابن المقفع والجاحظ والهمذاني والحريري وألف ليلة وليلة.

ثم هناك إشكالية الأغراض الشعرية التي تطرح مسألة علاقة الأدب بالسلطة وبالتحولات التي طرأت منذ القرن الأول للهجرة على المجتمع العربي والإسلامي، وهو ما يقود حتما إلى الوقوف على المحطات التأسيسية لأغراض جديدة مستقلة، كالغزل العذري في القرن الثامن، وشعر الخمرات في العصر العباسي، والشعر الصوفي كمستودع سرّي ليأس المثقف من الوضع السياسي في الأقطار العربية والإسلامية التي بدأت في الهبوط، نحو هاويتها التاريخية بفعل الاستبداد والانقسامات والخصومات السياسية سواء في المشرق أو في بلاد الأندلس.

وفي الأدب الحديث والمعاصر، يركز الدرس الأدبي على أهم محطاته التاريخية بدءا من أواخر القرن التاسع عشر، فيتم تدريس الشعر والنثر الخاصين بهذه المرحلة في إطار ما يسمى بإشكالية عصر النهضة، حيث ينصب اهتمام الدروس على علاقة الأدب بالتحولات السياسية الجديدة التي طرأت على العالم العربي والإسلامي بعد حملة نابليون على مصر وقبيل سقوط الخلافة العثمانية وصولا إلى بداية المد الاستعماري الأوروبي في العالم العربي.

إن غياب برنامج محدد ومشارك بين كل أقسام العربية لا يعني أن الإشكاليات المطروحة في تدريس الأدب العربي تختلف اختلافا مطلقا بين هذه الأقسام، بل إن المتتبع لمقرر دروس الإعداد لاجتياز مباراة التبريز في اللغة العربية يلاحظ أن ثمة إشكاليات بعينها تفرض نفسها على الدرس الأدبي في الكثير من الجامعات خاصة الجامعات الكبرى الثلاث السوربون، وإيكس مرسيليا، وليون، والتي تتولى أقسامها الإعداد لمباراة التبريز كل سنة. وهذه بعض الإشكاليات المطروحة في مباراة التبريز في السنوات الأخيرة في الأدب العربي القديم والحديث ما يلي:

❖ برنامج ٢٠١٨م/٢٠١٩م

- أدب قديم: تقاطع مفهوم الأدب بمعناه القديم مع الخطابين الأدبي والأخلاقي من جهة، والمقدس والديني من جهة ثانية: كتاب *الفرج بعد الشدة* للتوخي نموذجاً.

- أدب حديث ومعاصر: إعادة قراءة النموذج الأسطوري الكلاسيكي وتجديد التعبير الأدبي في القرن العشرين: صورة مجنون ليلي في الأدب العربي الحديث.

❖ برنامج ٢٠١٦م/٢٠١٧م

- أدب قديم: أدب ومصير بشار بن برد: شخصية محبوبة وملعونة في الوقت ذاته، كما يصورها كتاب *الأغاني* لأبي الفرج الأصفهاني.

- أدب حديث ومعاصر: المواطن الحضري والأدب: الصورة الأسطورية لمدينة طنجة في روايات محمد شكري.

❖ برنامج ٢٠١٤/٢٠١٥

- أدب قديم: الكتابة والسياق والمقصدية في رسالة الجاحظ: في *فخر السودان على البيضان*.

- أدب حديث ومعاصر: أصداء معاصرة وتصورات متمردة على التاريخ الديني في الرواية التاريخية عند يوسف زيدان: رواية *عزازيل* نموذجاً.

❖ برنامج ٢٠١٣

- أدب قديم: الكتابة الأخلاقية والدينية عند أبي العلاء المعري: رسالة *الغفران* نموذجاً.

- أدب حديث ومعاصر: الغنائية والالتزام والنزعة الإنسانية في أشعار محمود درويش المتأخرة: حالة *حصار* و*كزهر اللوز* أو *أبعد* نموذجاً.

يستنتج من هذه المقررات أن إشكاليات الدرس الأدبي في الجامعة الفرنسية ينصب أساساً على إعادة النظر في الصور النمطية التي عهدناها في التراث النقدي العربي الحديث. ففي الأدب القديم، نلاحظ اهتماماً متواصلاً بالعلاقة بين الأدب والأخلاق، وهو ما يسمح بربط الأدب بباقي العلوم الفلسفية منها والدينية خاصة وربط الدرس الأدبي بالدرس الفلسفي لقراءة أحدهما في ضوء الآخر، كما نلاحظ اهتماماً أيضاً بصورة الكاتب أو الأديب في المخيال العربي القديم انطلاقاً من كتب الأخبار والسير، مثل كتاب *الأغاني*، وهو ما يجبر الطالب إلى الاهتمام بدروس التاريخ والحضارة العربية الإسلامية لفهم اشتغال المخيال العربي إزاء نماذج أدبية والتميز فيها بين الواقعي والأسطوري.

أما في الأدب الحديث والمعاصر، فإننا نلاحظ اهتمام الدرس الأدبي في الجامعة الفرنسية بالبحث عن التأثيرات الأدبية القديمة على الكتابة الأدبية المعاصرة وأشكالها السردية والشعرية، مثلما طرحه مقرر التبريز سنتي ٢٠١٨م و٢٠١٩م، من خلال صورة مجنون ليلي في الأدب العربي الحديث أو مقرر سنتي ٢٠١٤/٢٠١٥ من خلال دراسة تأثيرات كتب التاريخ على الرواية العربية المعاصرة.

ونلاحظ أخيراً أن بعض الإشكاليات المقترحة تتحكم فيها أحياناً سياقات سياسية بفرنسا حول قضايا تشغل النخبة السياسية وقسطاً من المجتمع المدني الفرنسي كقضية الهجرة والتميز العنصري مثلاً، وهذا ما يؤكد مقرر سنتي ٢٠١٤م و٢٠١٥م، وهو

يطرح للقراءة والدرس رسالة الجاحظ في فخر السودان على البيضان، مما يجعل من الدرس الأدبي نافذة مهمة على التاريخ والسياقات السياسية والاجتماعية قديما وحديثا.

٤. منهج الدرس الأدبي

قد يمكن الحديث عن مناهج متعددة وليس منهجا واحدا في دراسة الأدب العربي بفرنسا؛ إذ هنا أيضا لا تفرض المؤسسة التربوية الجامعية منهجا أو مناهج لمقاربة تاريخ الأدب العربي ونصوصه، إنما يقرر الأستاذ وحده طريقة التدريس والبحث في الأدب. فهو قد يفضل المنهج البنيوي في دراسة النصوص الأدبية من أجل استنباط الآليات السردية والشعرية والبلاغية في اشتغال النص الأدبي، وقد يستهويه المنهج السيميائي من أجل الوقوف عند آليات اشتغال الدلالة في النص الشعري أو النثري، وقد يفضل عنهما مقاربة النصوص من زاوية اجتماعية - أدبية تبحث خاصة عن علاقة الأدب بمحيطه وشروط إنتاجه.

لكن المتبع عن قرب لتدريس الأدب بفرنسا يدرك أن المنهج السائد يظل هو نفسه الذي يميز الدرس الأدبي في الإعداد لشهادتي التبريز والكفاءة، أي ذلك المنهج المتوارث عن الدراسات الاستشراقية وعن الطريقة الفرنسية التقليدية عامة في دراسة الأدب: أي المنهج الشمولي الذي يدرس الأدب أولا في علاقته بمحيطه الاجتماعي والسياسي والأدبي؛ وثانيا في موضوعاته ومحتواه الفكري؛ وثالثا في خصائصه الفنية من بلاغة وتركيب وتناصت مع النصوص السابقة عنها.

ومن ميزات هذا المنهج تركيبته الشمولية ومرونته، فهو لا يسقط النظريات الأدبية على النصوص ولا يتقيد بآليات نقدية لمدرسة بعينها، وإنما يستنطق النص في علاقته بمؤلفه وبمحيطه الاجتماعي والتاريخ والسلطة والأخلاق والفلسفة والدين. همه الأساسي في ذلك هو فهم النص على ضوء شروط إنتاجه، ثم فهم آليات اشتغاله السردية أو البلاغية أو الشعرية مستعينا في ذلك بكل المناهج الحديثة التي تساعد في تفكيك النص الأدبي ودراسة مقوماته الموضوعاتية والجمالية.

ولعل إلقاء نظرة سريعة على برامج التبريز التي أتينا عليها أعلاه يؤكد من جهة أن منهج الدرس الأدبي تتحكم فيه الإشكالية التي يريد المدرس طرقها؛ ومن جهة ثانية أن هم الدرس الأدبي في فرنسا ليس هو الأدب في حد ذاته فحسب، وإنما أيضا وبشكل أساسي الأدب كنافذة أيضا لفهم ما حوله. هذا ما نلمحه مثلا في برنامج التبريز لسنتي ٢٠١٨م و٢٠١٩م، حيث إن إشكالية تقاطع مفهوم الأدب بمعناه القديم مع الخطابين الأدبي والأخلاقي من جهة، والمقدس والديني من جهة ثانية من خلال كتاب الفرج بعد الشدة للتونسي لا يمكن أن يستوفيه منهج واحد، بل يتطلب من الدارس أن يستعين بطرق وعلوم متعددة للكشف عن التقاطع بين كل هذه الخطابات. ولعل مفهوم الخطاب هنا كفيلا بأن يشترط من الدارس لهذه الإشكالية الإلمام بخصائص كل خطاب قبل البحث في التقاطعات بين هذه الخطابات جميعها وبين الخطاب الأدبي.

ومما يدل أيضا على أن هذا النوع من المقاربات الشمولية والمتعددة المناهج للنص الأدبي هو السائد في الدرس الأدبي بالجامعة الفرنسية هو أن أبحاث الدكتوراة في الأدب تسير في أغلبها على هذه الطريقة. فخلافا لما هو سائد في الجامعات العربية، حيث يقوم الطالب بتخصيص فصل نظري للبحث يطبقه في الفصول اللاحقة على المتن الذي يشتغل عليه، يفضل الباحث على منوال الطريقة الفرنسية الدخول مباشرة في تحليل المتن، وكل استحضار لنظريات بعينها أو جزء منها يجب أن يستدعيه المتن وليس العكس.

الخاتمة

يعتقد الكثير من الطلاب القادمين إلى فرنسا من البلدان العربية أنهم سيدرسون الأدب العربي بنفس الطرق التي يدرس بها في البلدان العربية، وهو اعتقاد خاطئ؛ إذ يختلف الأمر كثيرا سواء من حيث مناهج التدريس أو من حيث الأهداف المتوخاة من تدريس اللغة العربية وآدابها وحضارتها. فمن جهة أولى، يتم تدريس الأدب - كما أسلفنا - في انفتاح على مختلف العلوم المساعدة على فهم الظواهر الأدبية من تاريخ وفلسفة وعلم اجتماع؛ ومن جهة ثانية، يهدف تدريس الآداب الأجنبية بالجامعة الفرنسية إلى تكوين طلاب وباحثين مزدوجي اللغة الفرنسية واللغة التي الأجنبية التي يدرسونها. فبالنسبة إلى أقسام اللغة العربية وآدابها، يتم تكوين ما يسمى بالمستعربين للاشتغال مستقبلا في الترجمة أو السلك الدبلوماسي أو في سلك التعليم الثانوي والجامعي أو في مؤسسات البحث العلمي، مثل كوليج دو فرانس والمدرسة العليا للعلوم الاجتماعية بباريس. ولأن الجامعة هي التي يتخرج منها الطلبة الراغبون في اجتياز مباراة ولوج سلك التعليم الإعدادي (مباراة الكفاءة)، والثانوي (مباراة التبريز)، فإن دورها بالغ الأهمية في تكوين طاقات وأطر ذات كفاءات عالية. إن مهمتها في تدريس اللغة العربية وغيرها من اللغات بحسب مفتش اللغة العربية العام برونو لوفالو هي «ضمان مستوى عال من التكوين العام وتنشيط القدرات الذهنية وتمكين الطالب من التعبير بشكل مفهوم لإيصال معارف معقدة، أي للتعليم» (كلكتيف، ٢٠٠٨م، ص ١٧٥). وبقدر ما يشكل هذا التدريس عامة وتدريس اللغة العربية خاصة رافدا علميا وأكاديميا، مهما في تكوين نُخب للاشتغال بالتعليم والسلك الدبلوماسي والبحث العلمي، فإنه يعاني من عراقيل متعددة، أهمها صورة العربي واللغة العربية في مخيال الأوروبيين المعاصر الذي يربط اللغة العربية بشكل تلقائي بالدين الإسلامي، مما يؤدي في أذهان القانمين على الشأن التربوي وفي المخيال الجمعي الفرنسي عموما إلى النظر بحبيطة وحذر إلى كل ما له علاقة باللغة العربية. فم منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠١١م، صار من الصعب في المجتمع الأوروبي الفصل بين اللغة العربية والإسلام والإرهاب، وهي صورة تم تسويقها من طرف حكومات ومثقفين يشتغلون لأجندة اليمين المتطرف في فرنسا وأوروبا هدفها خلق البلبلة داخل أوروبا بين مواطنين مسلمين وغير مسلمين، مما جعل حتى الحكومات غير المتطرفة تخشى، منذ العقدين الأخيرين، العمل على تشجيع تعليم اللغة العربية في المدارس والجامعات. فرغم الإقبال المتزايد على تعلم اللغة العربية بالجامعات الفرنسية، هناك توجس سياسي من هذ التعليم وتقليص في عدد المناصب الجامعية في أقسام اللغة العربية وفي أحسن الأحوال تجميدها.

المصادر والمراجع

أ- العربية

غرافي، ميلود. (٢٠١٢م). *تدريس اللغة العربية في فرنسا بين الاختيار المؤسسي والإحالة إلى الهوية ضمن الكتاب الجماعي اللغات في الهجرة*. الرباط: مجلس الجالية.

ب- الفرنسية

كلكتيف

_____ . (2008). *Le centenaire de l'agrégation d'arabe*. Versailles: Crdp.

لورانس

Laurens, Henry. (2008). *l'Orientalisme en France, mise en perspective, pin Le centenaire de l'agrégation d'arabe*. Les Actes de la Dgsco: Crd Versailles.

ريغ

Reig, Daniel. (2006). *L'orientalisme savant: de l'humanisme au politique» in Histoire de l'islam et des musulmans en France du Moyen Âge à nos jours*. Paris: Albin Michel.

